اللغة والثقافة

- فرضية سابير – وورف.
- علاقة الثقافة باللغة.

تترجم اللغة المخزون المعرفي للمجتمع، والذي يمثل التجربة والخبرة المشتركة المتولدة من التفاعل اليومي بين الإنسان ومحيطه الطبيعي والاجتماعي، لإنتاج الأدوات المؤهلة والحلول المناسبة، لجعل الواقع قابلا للعيش والتعايش بين الناس، وبين الناس والطبيعة ومكوناتها، ومن خلال هذا كله يتجلى ما يُعرف بالثقافة، المنقولة والمتداولة والمتوارثة ضمن صيغ كلامية تكون في مجموعها لغة الجماعة، "البشر لا يتعلمون عن طريق الخبرة المباشرة والملاحظة والتقليد فقط. وإنما يتعلمون كذلك من خلال الخبرة التي تتراكم في صورة رمزية لغوية غالبا، فما أن ينجح إنسان ما في حل مشكلة معينة حتى يصبح في وسعه تلخيص هذه الخبرة في كلمات، وبهذه الطريقة تصبح جميع خبرات وملاحظات أي فرد في متناول بقية أفراد المجتمع الحاضر، ليس هذا فحسب بل إنها تمكن البشر من تلخيص أساليب السلوك التي تعلموها، ونقلِها إلى جيل جديد"[1] وتبدو العلاقة بين اللغة والثقافة، معروفة وبسيطة، وربما بديهية، إلا أنها من التعقيد بمكان حيث أخذت الكثير من الدراسة والنقاش، وفي علوم وتخصصات مختلفة، مثل اللسانيات الأنثروبولوجية وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وعلم اللغة العصبي، والأنثروبولوجيا اللغوية، وفلسفة اللغة...، وكانت دراسات كثيرة ومستفيضة في كل هذه التخصصات، فالموضوع في أساسه يتعلق باللغة والفكر والثقافة والواقع الاجتماعي وإدراك العالم ومدى توافق واختلاف الجماعات والثقافات واللغات في ذلك. وتجد دراسة موضوع اللغة والثقافة جذورها في الفلسفة الغربية، التي اهتمت لفترة طويلة بدراسة اللغة والمعرفة، وفي نهايات القرن التاسع عشر، ومع ظهور مناقشات حول الثقافة والحضارة، والشروع في

تعريف الثقافة كمصطلح ومفهوم، وخاصة مع بداية ظهور الأبحاث الأنثروبولوجية، أخذ الموضوع اهتماما وأبعادا عميقة في البحث والنقاش، ولعل من أبرز الدراسات ما قام فون همبولث في ألمانيا، حيث "نجد أن تقدم اللغة في رأي فون همبولث يشكل قنطرة بين ذاتية وعي الفرد، وموضوعية العقل الذي تشكله العمليات الاجتماعية، كما أن "الصيغ الداخلية للكلام" تعطي الأسس الموضوعية لرؤية العالم، ويوضح فون همبولث بجلاء في مقدمة كتابه عن قبائل "الكوي" أنها تؤثر بصورة قوية على أفكار وأفعال الأفراد، ولا يمكن بأي حال من الأحوال التقليل من الأثر الهام والمستمر لأعمال فون همبولث في تشكيل النظرية اللغوية، ولاسيما في ألمانيا، بسبب النجاح الذي حققته بعض الحركات الفكرية المضادة في القرنين التاسع والعشرين"[2]، والتي ربما شكلت مقدمة مهمة لأعمال إدوارد سابير ذي الأصول الألمانية، – والذي تتلمذ على الأمريكي الألماني منظر النسبية الثقافية فرانس بواس– وتلميذه بنجامين لي وورف، والتي توجت فيما بعد بما يعرف بفرضية سابير – وورف .*

---

* **إدوارد سابير** ولد في لاونبورغ بألمانيا عام 1884 وهاجر إلى الولايات المتحدة مع عائلته عندما كان في الخامسة من عمره. تلقى دراسته العليا في جامعة كولومبيا، حيث تابع محاضرات ف.بواس. عمل كباحث في جامعتي كاليفورنيا وبنسلفانيا، ثم أصبح أستاذ الأنثروبولوجيا والألسنية العامة في جامعة شيكاغو(1925– 1931)، وشارك في العديد من البعثات الإثنوغرافية بين القبائل الهندية في أمريكا الشمالية، توفي عام 1939.

بنيامين لي وورف (24 أبريل, 1897 – 26 يوليو, 1941) أنثروبولوجي وعالم لسانيات أمريكي، عمل وورف طوال حياته مهندسًا كيميائيًا، في مكافحة الحرائق ولكنه اهتم بعلم اللغة في شبابه، إذ جذبه في البداية هذا الاهتمام إلى دراسة العبرية التوراتية ليتوجه بعدها إلى دراسة اللغات الأصلية في أمريكا الوسطى وبعدها في المكسيك ، نُسِّقت مخطوطاته على يد أصدقائه اللغويين الذين عملوا أيضًا على نشر تأثير أفكاره على العلاقة بين اللغة والثقافة والإدراك بعد وفاته بسبب السرطان في عام 1941. نُشِرت العديد من أعماله في العقود الأولى التالية لوفاته.

فرضية سابير- وورف:

تُعرف باسم فرضية سابير– وورف لأنها مدينة بالكثير لعمل اللغوي الأمريكي إدوارد سابير أستاذ بنجامين لي وورف. وهي تتلخص فيما يلي: يتحدد السلوك الثقافي لأفراد المجتمع من خلال لغتهم التي يتكلمونها. ف"اللغة منظِّمة ومصنِّفة للتجربة الحسية"[3]

لقد رأى إدوارد سابير أن "النّاس لا يعيشون في العالم الموضوعيّ وحدهم ولا يعيشون بمعزل عن النّشاط الاجتماعيّ كما يُفهم بصفة عامّة ولكنّهم (يعيشون) تحت رحمة لغة خاصّة صارت وسيلة التّعبير لمجتمعهم. ومن الوهم التّامّ أن نتصوّر أنّ الواحد يساير الواقع أساسا من دون استعمال اللّغة وأنّ اللّغة مجرّد وسيلة عارضة لحلّ مشاكل محدّدة في التّواصل أو التّفكير. حقيقة الأمر هي أنّ العالم الواقعيّ، إلى حدّ كبير، مشيّد على العادات اللّغويّة للمجموعة... نحن نرى ونسمع وخلافا لما يقال، نجرّب بطريقة واسعة كما نفعل لأنّ العادات اللّغويّة للجماعة تفرض مسبقا اختيارات تأويليّة معيّنة". فاللغة هي أساس التفكير، ولا يمكن التفكير خارج الأطر والعادات اللغوية للجماعة.

إن اللغات لا تختلف فقط عن بعضها البعض من جماعة لغوية إلى أخرى، وإنما إدراك وفهم وتقييم الجماعات المختلفة للعوالم المادية والاجتماعية أيضا تختلف باختلاف اللغة، وعلى هذا الأساس فالصيغ اللغوية المستعملة من طرف أية جماعة هي التي تحدد نمط تفكيرها وبالتالي نمطها الثقافي، وعندما لا توجد لغتان متشابهتان، مما يسمح بوجود ترجمة وافية وأمينة تنقل من لغة إلى أخرى، لذا فعوالم الجماعات وثقافاتها متمايزة بتمايز لغاتها، وليس بألفاظها فقط بل بكل أنظمتها.

وبالنسبة لوورف بشكل خاص، يتم تحديد العادات الاجتماعية للأفراد من خلال الطريقة التي يقيمون بها ويحللون المواقف التي يواجهونها في الحياة الاجتماعية. بناء على مرجعية تحليلية تعتمد على الأنساق اللغوية لأنه عندما نفكر في أي مشكلة، فإننا نستخدم جملًا وكلمات من لغة معينة. ولذلك، فإن

القواعد والمفردات هي التي تقوم في نهاية المطاف ببناء التفكير والسلوك. يعطي وورف مثال بلغة الهوبي (لغة أمريكية أصلية في جنوب غرب الولايات المتحدة)، والتي لا تحتوي على تعابير أو صيغ او قواعد تدل على الزمن. فلا توجد، كما هو الحال في اللغات الأوروبية، تعبيرات عن المدة أو اللحظة (الماضي أو الحاضر أو المستقبل) عند حدوث عمل ما. بدلاً من ذلك، فإن أسماء الأشخاص أو الأشياء هي التي تغير شكلها، اعتمادًا على أنها موجودة في الواقع أو في طور التكوين. على عكس اللغات الأوروبية، التي تتحدث عن الوقت باعتباره يتكشف، وأن الأحداث والأفعال تسير بانتظام ضمن سلسلة زمانية من الماضي والحاضر والمستقبل، ورغم ذلك يملكون وعيهم بالمكان والزمان وفق طريقتهم الخاصة، ويعتبر الزمان والمكان والسرعة من المشتركات الثقافية العالمية، في اعتقاد مجتمعات اللغات الأخرى، ومن هنا استنتج أن طريقة إدراكهم للعالم تختلف عن الذين يتكلمون اللغات التي تحتوي على تعابير زمانية مكانية كاللغات الأوروبية، وثقافة الهوبي بالتأكيد تختلف عن الثقافة الغربية.

وبحكم مهنة وورف كمهندس كيميائي وعمله كخبير أمن وسلامة من الحرائق استطاع أن يدمج بين أبحاثه اللغوية وتكوينه العلمي ومهنته وقد أورد الكثير من الأمثلة في دراساته من واقع عمله نذكر هذا المثال الذي يوضح فرضيته بشكل مبسط أكثر، حيث يذكر أنه "تلقي مدبغة الجلود المياه الثقيلة المحملة بالمواد والفضلات في حوض خارجي للترسيب، نصفه مغطى بالألواح الخشبية والنصف الآخر مكشوف، والذي عليه لفظيا على أنه حوض أو بركة تجمع المياه، وقد حدثت أعمال للحدادة واللحام، قرب ذلك الحوض، فتطاير الشرر من اللحام إلى داخل الحوض، فأحدثت شعلة نارية كبيرة، التهمت الألواح الخشبية، وانتشرت على البنايات المجاورة، والسبب في ذلك هي تلك الغازات المنبعثة من تفسخ الفضلات الحيوانية المحجوزة تحت الألواح الخشبية، وأصبح الموقف معاكسا لما يعني به الماء أو المتعارف عليه

بانه حوض ماء، أي هناك عامل آخر يدخل في مشاكل حدوث الحرائق، هو الفهم المحدد لغويا الذي يمتلكه الناس عن العوامل والمواقف المادية"[4]

لقد رأى وورف "أن خلفية النظام اللغوي ليس مجرد وسيلة لإعادة انتاج الأفكار وإنما تشكيل الأفكار والبرنامج الموجه لنشاط الفرد الذهني وكل ما يرتبط بتحليل الانطباعات وعن توليفة مخزونه الذهني وأن صياغة وبناء الأفكار العقلانية لا تعد إجراءات مستقلة، إنما جزء من قواعد النحو. ويضيف، وبفضل تمايز اللغة ورموزها وتركيباتها الصرفية والصوتية فإن الثقافة السائدة لأي مجتمع هي انعكاس مباشر للخصائص التي تتمتع وتتميز بها لغتها"[5]. إذن فالعلاقة بين اللغة والثقافة علاقة حتمية.

وعلى الرغم من جاذبية هذه التفسيرات ومنطقيتها أحيانا، فقد وجهت لها انتقادات ومن بينها أنها غير مكتملة لأنها لا تفسر أصل اللغة. فإذا كانت الصيغ اللغوية تحدد السلوك، فمن أين تأتي هذه الصيغ؟ وعلى ماذا تستند؟ ألن يكون من المنطقي عكس فرضية سابير– وورف والنظر إلى اللغة على أنها تعبير عن التجربة الاجتماعية والثقافية لمجموعة بشرية؟ في الواقع، تبقى الارتباطات التي يقيمها وورف بين الصيغ اللغوية والسلوك على مستوى سطحي للغاية، فاللغة تؤثر على الفكر والثقافة، ولكن ليس في المقام الأول، قبل كل شيء، ويبقى أنه من المهم دراسة كيفية ترجمة الأشكال اللغوية للتجربة الاجتماعية والثقافية[6].

ثم إن الزعم باستحالة إدراك ووصف الأشياء بلغة فقيرة لتلك المصطلحات، لا أساس له من الصحة، فاللغة تمتلك الديناميكية اللازمة وفق أنظمتها وارتباطها بالواقع الاجتماعي، تجعلها قادرة على التأقلم وتطوير ذاتها لتتماشى مع أي واقع جديد، مما يؤهل المتكلم بأي لغة للتعبير على كل الأشياء والمواقف التي تواجهه في الحياة، وباستطاعة أي ملاحظ أن يرى التغيرات الطارئة على اللغات في كل

الأزمنة والأمكنة، ولعل نظرة بسيطة على تاريخية الألفاظ تكشف ذلك، إذن فاللغة تتغير كغيرها من عناصر الثقافة وفق التغير الاجتماعي الحاصل في أي مجتمع.

علاقة اللغة بالثقافة:

اللغة هي نتاج الثقافة الاجتماعية، مادّة ثقافيّة مكتسبة عن طريق التنشئة الاجتماعية، يتمّ تعلّمها من طرف الأفراد منذ الصغر، وهي ممثلة في نظم رمزية صوتيّة ودلالية تنتظم وفق قواعد معينة، يعرفها الناطقون بها لتؤدي وظيفتها في التفاعل الاجتماعي، لإنتاج واستهلاك الثقافة، من طرف النّاطقين بها، وهم الذين حمّلوها تلك المعاني بناء على ما يمتلكون من رصيد ثقافي، لتصبح اللغة حاملة لثقافة الجماعة، كل ذلك يحدث عن طريق التواصل، الذي يحدث عن طريق الكلام أو الخطاب المكتوب أو الشفهي، ويعتبر أهم وظائف اللغة، في حين لا يعتبر الكلام الأداة الوحيدة للتواصل، أنه نظام رمزي متكامل من الأصوات والحركات والإشارات والإيماءات، المعرفة ضمن ذهني المتكلم والمتلقي، فالرسالة لا تحمل المعنى فقط بل تكون محملة بشحنة عاطفية، يدركها المتشاركون في هذا النظام التواصلي الرمزي، المنتمون للثقافة ذاتها، وإلا صعب عليها فك شيفرات تلك الرموز، إنه نظام معقد ومتداخل بين الصوت والصورة الذهنية والشحنة العاطفية والاستجابة، كل ذلك يتخذ شكله ونمطيته ويجد فهمة وتفسيره وتصنيفه، ضمن الثقافة الاجتماعية للجماعة، كما يتميز هذا النظام التواصلي بالمرونة، والقابلية للتغير والتجدد، ككل العناصر الثقافية، فالألفاظ تموت وتنسحب من التداول التواصلي بين افراد المجموعة عندما تفقد وظيفتها، وربما تنتقل لتؤدي وظائف دلالية أخرى، كلفظ سيارة الدال على نوع من المركبات حاليا، كان قديما يطلق على القافلة، وقد تستوعب اللغة ألفاظا جديدة، من لغات أخرى ككلمات الراديو والتلفزيون وغيرها كثير، الشيء نفسه يحدث مع العناصر الثقافية المادية منها أو غير المادية، قد تتجدد بتغير الظروف الاجتماعية، وقد تعوضها عناصر جديدة مبتكرة، أو مستعارة من ثقافة أخرى عن طريق ما يعرف بالتثاقف.

وقد جمعت البنيوية في الأنثروبولوجيا بين الثقافة واللغة، حيث تطورت البنيوية كإطار نظري في علم اللغة من قبل فيرديناند دوسوسير في العشرية الثالثة من القرن العشرين. واقترح دو سوسير أن اللغات قد شيدت من القواعد الخفية التي يعرفها الممارسون ولكنهم غير قادرين على التعبير عنها. بعبارة أخرى، على الرغم من أننا قد نتحدث جميعًا اللغة نفسها، إلا أننا لسنا جميعًا قادرين على معرفة القواعد النحوية التي تحكم نظام الكلام الذي نتلفظ به. ومع ذلك، ونفهم هذه القواعد ضمنيا من خلال التكوين والتنشئة، وندرك متى نستخدم هذه القواعد بشكل صحيح.

يعتبر كلود ليفي ستراوس رائد البنيوية بلا منازع، وقد تأثر بأطروحة البنيوية اللغوية خاصة من خلال نقاشاته وعمله المشترك مع رومان جاكبسون في نيويورك. وقد اقترح أن الثقافة، مثل اللغة، تتكون من قواعد خفية تحكم سلوك ممارسيها. وما يجعل الثقافات فريدة ومختلفة عن بعضها البعض هي القواعد الخفية التي يفهمها المشاركون ولكنهم غير قادرين على التعبير عنها. وبالتالي، فإن الهدف من الأنثروبولوجيا البنيوية هو تحديد هذه القواعد. وأكد أن الثقافة هي عملية جدلية: أطروحة، نقيض، وتوليف. اقترح ليفي ستروس وسيلة منهجية لاكتشاف هذه القواعد – من خلال تحديد معارضة ثنائية.

---

[1] - رالف وهويجر في محمد حسن عبد العزيز، علم اللغة الحديث، مكتبة الآداب، القاهرة، 2011، ص 94

[2] – توماس لوكمان: علم اجتماع اللغة، ترجمة أبوبكر أحمد باقادر، النادي الأدبي الثقافي، جدة ، المملكة العربية السعودية، ص 17.

[3] – ك.بودلو في: بيار بونت وميشال إيزار: معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، مجد، بيروت،لبنان، 2006،ص 539

[4] – ياس خضر عباس العباسي. "النسبية اللغوية في حقل الأنثروبولوجية الثقافية"، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 43، نيسان 2019 : 1974–1985.

[5] – المرجع نفسه.

[6] – Louis–Jack Dorais : L’anthropologie du langage ,1979 , p 28 .